الإعجاز القرآني وأثره في النقد الأدبي
تلمُّس مستوى التعبير في القرآن الكريم

أ.د| هاشم ياغي(*)

الكلام في إعجاز القرآن الكريم يقع في صميم النقد الأدبي؛ فهو من المحاولات الجادة التي قصد بها معرفة الأثر العميق الذي أحدثه القرآن في نفوس متلقيه من العرب بطريقة تفوق ما ألفوه من فن القول تفوقاً محيراً بادئ الأمر وتأتي حافزاً على تعليل ذلك بعد ذلك. ومع أن هناك روايات عن بعض ما حاروا أمام هذا الجديد المتفوق من التعبير فإن في القرآن نفسه أماكن عدة نختار من بينها الآيات التالية لتوضيح أثر هذا التنزيل العزيز.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾الآية ٢١ من سورة الحشر.

ومن هنا كان أثر القرآن في النفوس من العمق والعظمة بحيث تجاوز المألوف حتى إلى الجماد (الجبال).

قال تعالى يتحدى العرب الجاهلين الذين نزل عليهم ولم ينزل على قوم من أقوام الأرض غيرهم أول ما نزل تحدياً يكشف عن عجزهم في الإتيان بمثله، وذلك هو الإعجاز المبين: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾الآية ٨٨ من سورة الإسراء.

(*) أستاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية ـ الأردن.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّـهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾الآية ٣٨ من سورة يونس.

وإذن فالإعجاز بدأ منذ العهد الذي أنزل فيه القرآن على أولئك العرب، واستمر ذلك حتى يومنا هذا وسيستمر إلى أبعده.

دراسات في علماء بارزين تناولوا مفهوم الإعجاز:

قامت دراسات كثيرة في هذا الإعجاز، وتصدى لبيان ذلك عدد غير قليل من الكتاب والعلماء، ولهذا أنصح من يود الوقوف عند مفهوم الإعجاز أن يعود لمصادر ومراجع من أهمها:

- القرآن الكريم
- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، (٠-٣٧٠ هـ) في "الموازنه بين الطائيين" تحقيق السيد صقر، القاهرة: ١٩٦٠ -١٩٦١م.
- الباقلاني، أبو بكر بن الطيب، (-٤٠٣هـ) في "إعجاز القرآن"، تحقيق السيد صقر، القاهرة: ١٩٥٤م.
- الجرجاني، عبد القاهر، في " دلائل الإعجاز "، مصر: مطبعة السعادة وله طبعة أخرى بالمطبعة العربية الكائنة بشارع اللبردية رقم ١١ بتعليقات الإمام محمد عبده، وتصويبات أحمد مصطفى المراغي (-١٤٧١ هـ).
- الجرجاني، عبد القاهر، "أسرار البلاغة"، تحقيق المستشرق هيلمون ريتر، إستانبول: ١٩٥٤م.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، في" بيان إعجاز القرآن" (-٣٨٨هـ).
- الخفاجي، ابن سنان، عبد الله بن محمد بن سعيد، "سر الفصاحة"، القاهرة: مكتبة محمد على صبيح، ١٩٥٣م.

- الرافعي، مصطفى صادق، في " تاريخ آداب العرب"، ١٩١١م.
- السيوطي، جلال الدين، " الإتقان في علوم القرآن"، القاهرة: مطبعة حجازي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٦٨هـ.
- عباس، إحسان، "تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، بيروت: دار الأمانة ومؤسسة الرسالة.
- عبد الرحمن، عائشة، بنت الشاطئ، " الإعجاز البياني في القرآن"، مصر: دار المعارف، ١٩٧١م.
- المعافري، عبد الملك بن هشام أبو أحمد، " السيرة النبوية لابن هشام"، تحقيق مصطفى السقا وزميليه في أربعة أجزاء، قسمت قسمين: الجزء الأول والثاني في القسم الأول، والثالث والرابع في القسم الثاني، القاهرة: نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، طبعة ثانية ١٩٥٥م.
- الرماني، أبو الحسن، (ـ٣٨٥هـ) في "النكت في إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق الدكتورين خلف الله وزغلول سلام، مصر: دار المعارف، طبعة ثالثة ١٩٧٦م.

وقد سبق هؤلاء الأعلام الذين أوردتهم أعلام آخرون حاولوا أن يدلوا بدلوهم في فهم طبيعة الإعجاز القرآني، ولكنهم حوّموا حوله، ولم يتبلور ذلك المفهوم لديهم بالقدر الكافي. ومن هؤلاء الأعلام: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ـ٢٧٦هـ) في كتابه "تأويل مشكل القرآن".

فقد حاول في كتابه هذا الذي غلبت عليه سمات التفسير أن يرد على مَنْ كاد للقرآن، ولكن في غير تدقيق وبلورة، ومن ذلك ما قاله في مطلع هذا الكتاب، صفحة٣: " وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين".

ومن هنا لا أود أن أشغل القارئ كثيراً بمن حاول وحوّم دون أن يبلور سمات الإعجاز القرآني، ففي مثال ابن قتيبة ما يكفي، وخاصة حين نتذكر أن ابن قتيبة من أعلام القرن الثالث الهجري، وأستاذ الجاحظ كذلك، وإن كنا نود لو أن كتابا عنوانه" نظم القرآن" كتبه الجاحظ لم يضل طريقه إلينا ضمن ما ضل من تراثنا الغني الكثير.

أثر الإعجاز بطريقة غير مباشرة في النقد وأثر النقد في فهم الإعجاز:

وإذا نحن دخلنا القرن الرابع الهجري وجدنا علماً بارزاً حاول أن يبلور نظرية في النقد الأدبي في استطاعتها إلقاء الضوء على إعجاز القرآن الكريم ولكن بشكل غير مباشر، ذلك هو أبو القاسم الحسن بن بشير الأسدي في كتابه" الموازنة بين الطائيين".

وكنت قد وقفت عند هذه النظرية، وكتبت عنها مقالاً في كتاب "دراسات في الأدب واللغة"- مهداة من أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية وآدابها إلى جامعة الكويت بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيسها، العام الجامعي ١٩٧٦-١٩٧٧م - وعنوان هذا المقال:"من نظريات النقد في الأدب العربي القديم"، وفيه قلت:" ولنبادر بسط أبعاد هذه النظرية، وهي نظرية الخلق الأدبي في كتاب الموازنة بين الطائيين لمؤلفه أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وما فيها من عناصر يونانية وأخرى إسلامية.

قال أبو الحسن بن بشر الآمدي في كتابه"الموازنة بين الطائيين" طباعة دار المعارف بمصر ١٩٦١م الجزء الأول، صفحة (٤٠٢-٤٠٤):" وأنا أجمع لك معاني هذا الباب في كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر، زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر المصنوعات لا تجود ولا تستحكم إلى بأربعة أشياء: جودة الآلة ،وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى نهاية الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها، وهذه الخلال الأربع ليست في الصناعات وحدها بل هي موجودة في جميع الحيوان والنبات".

هذه النظرية جمعها الآمدي عن شيوخ أهل العلم بالشعر على حد قوله وهي نظريات ذات أبعاد عميقة يحسن أن نقف منها وقفة متأنية، فالأمور الأربعة التي تقوم عليها نظرية الآمدي في الخلق الفني كما نرى تستقي من عناصر الثقافة الإسلامية القدر الأكبر، وهي في الوقت نفسه مستوحاة من عناصر الثقافة اليونانية. ونحن نقول مستوحاة حتى لا نقع فيما وقع فيه بعض الباحثين حين اتهم الآمدي بسوء فهم العناصر اليونانية وليس يضير الآمدي ألا يكون مترجماً حرفياً للعناصر اليونانية، بل يكفيه أن تستثير في العناصر اليونانية طاقته على التأمل فيعمد إلى العناصر الإسلامية ذات الأبعاد المديدة في فكر الخلق عامة؛ ليستنبط منها نظرية الخلق الفني.

ونحن إذا أردنا تقريب هذه الأشياء الأربعة التي أشار إليها الآمدي لقرائنا المعاصرين قلنا إنها المادة الخام التي يختار منها عناصر العمل الفني أولاً، وقوة التأليف بين عناصر العمل الفني ثانياً، ثم قوة التصور لشخصية العمل الفني ثالثاً.

أما الشيء الرابع فهو قوة المتابعة في تنمية شخصية العمل الفني حتى يكمل ويتم بلا نقصان، وأود أن أشير إلى أن هذه الأشياء الأربعة تصلح عند التدقيق في أبعادها المديدة لأن تقوم عليها مفاهيم عصرية في رؤية العمل الفني ونقده بشرط أن يكون مفهوماً قبل كل شيء، إن هذه الأشياء الأربعة يجب أن تعمل في آن واحد وفي تناغم تام.

ومما قلته في هذا المقال: " وقد كان الآمدي أميناً مع عناصره الإسلامية حين رأى أن الخالق الأكبر سبحانه وتعالى لا يخلق أي مخلوق من الكائنات الحية في هذه الدنيا إلا بهذه القوى الأربع، فالله سبحانه وتعالى حين يخلق نخلة مثلاً تتجه القوة الخالقة البارئة للمواد الخام في الأرض فتختار العناصر اللازمة لشخصية نخلة من بين عناصر متعددة تصلح عناصر أخرى بينها لمخلوقات حية أخرى، مثل: زيتونة،أو حبة قمح، أو تفاحة ... الخ.

والقوة الخالقة تكون معها قوة التصور لشخصية النخلة وشكلها ومضمونها من اللحظة التي تتجه فيها القدرة الخالقة لعملية الخلق دون أن يكون هناك أدنى ميل لخلط النخلة بزيتونة مثلاً أو بغيرها، ويكون مع القوى الثلاث السابقة القوة الرابعة التي تعمل معها أيضاً منذ اللحظة الأولى لعملية الخلق، وهي القوة المتابعة أو الإتمام والإكمال، وبذلك تنمو النخلة بفعل هذه القوى الأربع حتى تصبح في تمام شخصيتها المثمرة آخر الأمر.

وإذا كنت قد أطلت في توضيح نظرية الخلق هذه التي جمعها الآمدي من أعلام في عصره فإنما فعلت ذلك كي أبين مدى إيحاء هذه النظرية بفكرة الإعجاز، إعجاز القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد من البشر أن يضاهي قدرته على تصور ما يريد أن يكون في الوجود، ولا أن يضاهي قوته في رؤية المواد الخام اللازمة لهذا الذي يريده الله أن يكون،ولا أن يضاهي قدرته في التأليف بين عناصر المواد الخام، ولات أن يضاهي قدرته في الإتمام.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن نظرية الآمدي هذه قادرة على تفسير ما جاء الله به سبحانه من آيات القرآن الكريم في صورتها المعجزة للبشر، لأن القوى الأربع المشار إليها سابقاً غير قادرة على الوصول إلى القوى الأربع المتفوقة عنده سبحانه.

بعض قضايا الإعجاز (الصرفة):

وهذا الفهم لإعجاز القرآن الكريم يتعارض مع مفهوم بعض الذين ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن مرده إلى الصرفة أي إلى أن الله سبحانه صرف العرب على أن يأتوا بمثله، ومن هؤلاء الذين قالوا بالصرفة: ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد بن سعيد في كتابه: "سر الفصاحة" نشر مكتبة علي صبيح بالقاهرة سنة ١٩٥٣م صفحة(١٠٩-١١٠) إذ يقول: " ومتى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما

يضاهي القرآن في تأليفه ... وإذا عدنا إلى تحقيقه وجدنا إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي كانوا يتمكنون فيها من المعارضة في زمن مرامهم".

مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥ من سورة الشعراء، ويقول سبحانه: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾الآيات ١ ـ ٣ من سورة الزخرف، فإن بعض العلماء رأى أن القرآن الكريم قد غير بإعجاز أساليب العرب في كلامها، وتفوق عليها.

فالقاضي عياض مثلاً يرى أن من وجوه إعجاز القرآن صورة نظمه، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العرب ومناهج نظمها ـ انظر "الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى"، عياض بن موسى اليحصيبي، تحقيق علي محمد البحاوي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٤ الجزء الأول، صفحة ٣٥٨.

ويرى الراغب الأصبهاني أن وجه الإعجاز في القرآن يقع في النظم الذي تفرد على نظام لم تألفه العرب في كلامها من شعر ونثر وسجع، انظر: "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي ١٣٦٨هـ، الجزء الثاني، صفحة ١٢٠، المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، طبعة مطبعة حجازي، القاهرة.

وهكذا نرى أن هذا الخلاف لا ينسجم كثيراً مع ذلك الذي رأيناه من آيات القرآن الكريم التي ترى أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مما جعل بعض العلماء يترجم مضمون هذه الآيات فيرى أن القرآن نزل على سنن العرب في التعبير.

وقد كتب في هذا القول ـ أي نزول القرآن على سنن العرب في التعبير ـ الدكتور أيمن سليم الأحمد ـ رسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٦م بإشرافي، وهي لا تزال مخطوطة.

يرى الدكتور أيمن الأحمد في رسالته هذه أن عدداً من العلماء لا يعدون مفارقة القرآن بنصه الفني للنصوص العربية الفنية المعروفة وجهاً للإعجاز.

ومن هؤلاء القاضي عبد الجبار في كتابه" المغنى في أبواب التوحيد والعدل "الجزء ١٦ صفحة ١٩٩، حيث يقول: "وليست فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية في الفصاحة.

ويرى القاضي عبد الجبار أيضاً، المصدر نفسه صفحة ٢١٦: " إن المباينة لسنن العرب تكمن بصورة أساسية في تفوق القرآن في فصاحته وبلاغته على كلام العرب فخرج بهذا التفوق عما اعتاده العرب". وكأن القاضي عبد الجبار قصد بهذا أن تفوق القرآن لم يكن مغايراً لسنن العرب في التعبير، بل بالتفوق على هذه السنن التي هي عربية، والإبداع بها وإن كان هو منها.

(انظر: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، تحقيق محمد مصطفى حلمي وآخرين، الدار المصرية للتأليف بالقاهرة الجزء ١٦، صفحة ١٩٩، ٢١٦)

موازنات أدبية نقدية:

وقد ذهب بعض العلماء في اتجاه الموازنة بين نص القرآن الكريم ونص غيره من كلام العرب، ومن هؤلاء: أبو الحسن،علي بن عيسى الرماني المعتزلي النحوي (٣٨٦هـ). فقد قسم البلاغة ثلاثة أقسام، ورأى أن بلاغة القرآن في القسم الأعلى المعجز، وهو يرى أن البلاغة تكمن في إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. ومن هنا قال: إن القرآن في أعلى طبقة من الحسن البلاغي. وقد قسم أبواب البلاغة عشرة أقسام، وفسر كل قسم منها، وأشار إلى ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة

البلاغة أو بمفهومه للبلاغة وكان الرماني في كلامه متجهاً للموازنة بين بلاغات القرآن الكريم، وغيره من كلام العرب. لم يخف الرماني قناعته بالصرفه، فقال: إن الصرفة هي صرف الهمم عن المعارضة- أي معارضة الفصحاء للقرآن - وعلى ذلك يعتمد أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته (انظر في هذا ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني والخطابي والجرجاني)، ورسالة الجرجاني في هذا هي النكت - صفحة ٧٥-٧٦، أما أبو سليمان الخطابي (-٣٨٨هـ) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي فيذهب في إحدى الرسائل الثلاث المشار إليها سابقاً في إعجاز القرآن، وهي بيان إعجاز القرآن، مذهب المقارنة أو الموازنة أيضاً، ويقول: "إن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينه غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق المرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل. فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه. فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف في نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة العذوبة، وهما على الانفراد في نعومتهما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة. فكان اجتماع الأمرين في نظمه - مع نبو كل واحد منهما عن الآخر- فضيلة خص بها القرآن". ثم قال: "وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله".

وقال موضحاً هذا المتجه: " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على

ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في واحد منه فلم توجد إلا في كلام العلي القدير. (رسالة بيان إعجاز القرآن صفحة ٢٦-٢٧).

وهكذا يتضح صنيع الرماني والخطابي في التحويم حول مفهوم الإعجاز القرآني، دون بلورة هذا المفهوم في صورة محددة غير عائمة.

وقد تعقب الرماني والخطابي كل من السيد أحمد صقر في مقدمته لكتاب "إعجاز القرآن" تأليف أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، والدكتور إحسان عباس في كتابه "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" وحاولا عرض آراء الرماني والخطابي عرضاً مفيداً في الكتابين المشار إليهما.

ومن المشهورين في الكتابة في إعجاز القرآن أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ) صاحب كتاب" إعجاز القرآن"- تحقيق أحمد صقر، نشر دار المعارف بمصر.

عقد الباقلاني في كتابه" إعجاز القرآن" صفحة (٤٨-٧١) فصلاً في جملة وجوه إعجاز القرآن على حد تعبيره، فقال: "ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز، إحداها يتضمن الإخبار عن الغيوب".

"والوجه الثاني: إنه كان معلوماً من حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ".

"والوجه الثالث: إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى حد الذي يعلم عجز الخلق عنه".

ثم يقول: "فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن لإعجاز وجزه: منها يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من

نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر".

" وفي ذلك معنى ثالث: وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يفوت ولا يتباين".

" ومعنى رابع: وهو أن كلام الفصحاء، يتفاوت تفاوتاً بينا".

" ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا".

" ومعنى سادس: وهو أن الذي ينقسم عليه الخطاب، من البسطاء والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجاوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم، موجود في القرآن".

"ومعنى سابع: وهو أن المعاني التي تضمنها في أصل الشريعة والأحكام، والاحتجاج في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع".

"ومعنى ثامن: وهو أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر فيه الكلمة في تضاعيف كلام أو تقذف ما بين شعر، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه، وواسطة عقده".

"ومعنى تاسع: وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة".

ثم يمضي الباقلاني في تعقبه لحروف أوائل السور، ولقسمة الحروف على ما قسمه أهل العربية.

"ومعنى عاشر: وهو أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الإفهام، يبادر معناه المطلب، عسير المتناول".

ثم يورط الباقلاني نفسه فيوازن بين معلقة امرئ القيس والقرآن، ويوازن بين القرآن ولامية البحتري:

أهـلاً بذلكـم الخيـال المقبـل فعـل الـذي نـهواه أو لم يفعـل

(انظر كتاب الباقلاني المذكور" إعجاز القرآن" صفحة٢٤٣-٣٣٤، ٣٣٤-٣٧٣).

كما تورط في نفي السجع عن القرآن. انظر(صفحة ٨٦-١٠٠) في المرجع نفسه.

وأنت ترى الباقلاني قد حوم وحـوم حـول إعجـاز القـرآن بكتابـه المشـار إليـه، ولكـن لم يتبلور فيه مفهوم إعجاز القرآن على حقيقته، ومن هنا قال فيه الأستاذ مصطفى صـادق الرافعـي ضمن ما قال:" على أن كتاب الباقلاني وإن كان فيـه الجيـد الكثـير، وكـان الرجـل قـد هذبـه وصفاه، وتصنع له، إلا أنه لم يجتنب فيه بادرة عابها هو مـن غـيره، ولم يتحـاش وجـها مـن التأليف لم يرضه من سواه، وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ ـ ويقصد كتابـا للجـاحظ بعنوان نظم القرآن لم يصل إلينا ـ "لم يكشـف عما يلتبس في أكـثر المعنـى"،ثـم يقـول الأسـتاذ الرافعي:" فجاء كتابه وكأنه في غير ما وضع له".

ويحاول الأستاذ الرافعي الاعتذار عن الباقلاني فيقول:" وقد كانت علوم البلاغة لم تهذب لعهده، ولم يبلـغ منـها الاسـتنباط العلمـي، ولم تجـرد فيـها الأمـهات والأصـول ككتب عبد القاهر ومن جاء بعده ـ ويقصد عبد القاهر الجرجاني ـ (انظر كتـاب الأسـتاذ الرافعي " تاريخ آداب العرب" الجزء ٢ صفحة ١٥٣).

غير أني أود أن ألفت إلى أن هذا الكـلام الـذي ذهـب إليـه الأسـتاذ الرافعـي إنمـا يحمل في طياته بعض ما حمله كلام الباقلاني، وكثرة ممن تصدوا لمعرفـة الإعجـاز، فقـد اتجه معظمهم إلى التركيب البياني والبلاغي اللفظي أكثر مـا اتجـهوا. وإن أشـاروا قليـلاً

إلى المعاني وليس الإعجاز في ألفاظ القرآن؛ فالقرآن لم يجئ للعرب الجاهليين من أجل إظهار البراعة في التشبيه أو الكناية، أو الإستعارة، أو السجع أو ما إلى هذه البلاغيات اللفظية في تكوينها الأول، وإن كانت بلاغة القرآن الرائعة لا تخطئها العين، وليس القرآن كتاباً في الاقتصاد، والسياسة، والحرب. وليس ديواناً منظوماً في الشعر ومكوناته، وإن كانت شخصية الشعر في أرفع مستوياته متحققة فيه، والكلام على الموسيقى في القرآن فيه ما يغني الباحثين في هذا المجال، وإنما جاء القرآن للعرب الجاهليين في صورة دعوة واعية مضيئة مبصرة تسلط الضوء على العلاقات بين الإنسان والوجود كله، وعلى الإنسان والطبيعة، وعلى الإنسان والإنسان، وعلى جوهر الإنسان نفسه، ولكنها قبل ذلك كله تسلط الضوء على العلاقة بين الإنسان وخالقه، خالق الكون والوجود الأكبر من كل القوى.

قال تعالى في الآية ١ من سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وإذن إعجاز القرآن في أنه رسالة السماء الكاملة التي أرادت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، إلى صراط الله ـ سبحانه ـ وإخراج الناس جميعاً موجه أولا إلى العرب الجاهليين؛ لكي يدخلوا تحت مظلة هذا النظام الجديد في رؤية الحياة والوجود، وكي يتدربوا على انتشال أنفسهم مما أرهقهم في الجري وراء كلأ لا يكفيهم بحركة البداوة لدى أكثرهم وبحركة تجارة محدودة تنفع قلة منهم، ومن هنا قام القرآن بطرائق الإقناع بنظامه الكامل،وبشكله ومضمونه اللذين لا يجوز فصل الواحد منهما عن الآخر، لأنهما كالروح والجسد، قام بانتشال من آمن من وهدة الخطأ في رؤية الكون والوجود أي من وهدة الضلال، وبتوجيه طاقة هذا العربي الجاهلي الهائلة نحو نظام جديد بحركة هذا الإنسان في أوسع حالاتها دون أن يحصره كما كان في الجاهلية في مكان محدود، ودون أن يحصره كذلك في زمان محدود فهو

أي هذا الإنسان مدعو برسالة السماء ـ القرآن ـ كي ينطلق في أوسع أمكنة الدنيا؛ كي يهدي الناس في جزيرة العرب وخارج الجزيرة إلى نظام جديد متكامل وهو الإسلام في قرآنه وسنة نبيه، وكي ينطلق في أوسع أزمنته، لأن القرآن والإسلام ينيران الطريق إلى الحياة الدنيا وفي الآخرة بما في الآخرة من جنات ونار، فالتوسعة في المكان والتوسعة في الزمان والأخذ بيد العربي الجاهلي لكي يعلم الدنيا كلها بما لديه من رسالة، هي سر عميق من أسرار القرآن وإعجازه والذين لم يدركوا هذا من الجاهليين ظنوا أن تقليد القرآن في بعض ألفاظه تجعل من بعضهم أنبياء، كذلك لم يفلح الذين ركزوا في فهم إعجاز القرآن على الألفاظ ومحسناتها، ولا على جزئيات منطقية فلسفية، وإنما نجح الذين فهموه على أنه نظام كامل بكل ما فيه من مضمون وشكل، غير منفصل الواحد منهما عن الآخر، فانتشلوا أنفسهم بعد جهاد معها ومع تقاليد كبلتها وفاءوا إلى حمل هذا النظام بكل أبعاده ومن هنا نفهم موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من المرتدين؛ فقد أدرك برؤيته الجديدة أن الذي يتنكر للزكاة إنما يفصل بين هذا النظام والحياة، ويقوض تكامله، واتساق مكوناته وأحسب أيضاً أن الذين نظروا إلى البلاغة نفسها من زاوية المحسنات اللفظية قد أخطأوا في فهم بلاغة القرآن، فبلاغة القرآن ليست في المحسنات رغم وجودها في أعلى مراتبها، وإنما في تأثيره فيمن استطاعوا انتشال أنفسهم تأثيراً عميقاً حولهم إلى حملة رسالة الدنيا بمنهج جديد كل الجدة استغرق القرآن زمناً واسعاً من ثلاثة وعشرون عاماً حتى درب العرب الجاهليين لأعين على استيعابه، وإذن لا معنى لمن قالوا بالصرف في الإعجاز، إذ كيف يجيء بنظام جديد متكامل من السماء غير النبي محمد صلوات الله عليه، متكامل في مضمونه وشكله معا وما في ذلك كله من مواقف أشرنا إليها، أي مواقف من الإنسان ومن المجتمع ومن الحياة ومن الكون والوجود، ومن توجهه الواعي إلى الله سبحانه، والدنيا والآخرة، أما بعد هذا فأحسب أنه آن الأوان لأن نقف عند عالم كبير استطاع أن يدرك شخصية القرآن الكريم وإعجازه في خطوة أوسع من خطوات

سابقيه إلى حد ما، ذلك هو عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: " دلائل الإعجاز"، و" أسرار البلاغة".

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ومحاولة فهم الإعجاز القرآني:

فقد بادر عبد القاهر في مطلع مقدمته لكتابه " دلائل الإعجاز" وأعلن رأيه في النظم فقال: " معلوم أن ليس النظم سوى تعليق (أي ارتباط) الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض" صفحة "ز" من المقدمة، ثم قال (صفحة ٢٨): " وهي أنا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدوا إلى معارضته، سمعوا كلاما لم يسمعوا قط مثله، ولأنهم قد رازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه، أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، لكان مجالاً أن يدعوا معارضته." ثم قال ـ في الصفحة نفسها ـ: " فقيل لنا قد: سمعنا ما قلتم، فخبرونا عنهم، فعَّم عجزوا، أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ، أم ما بهرهم منه؟ فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها (أي نهاياتها)، ومجاري ألفاظها ومواقعها." ثم يقول أيضاً(الصفحة نفسها): " بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور،ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم،ولو حك بيافوخه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول" .

ويقول عبد القاهر بعد ذلك (صفحة ٣١ـ٣٢): " وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، ومع التي خلفها: قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة ومعناهما، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للثانية في مؤداها" (واللفق المناسب).

ويقول ملخصاً رأيه في النظم (صفحة ٣٣): " فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة (أي المفاضلة والتمييز) وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر".

ولولا أن عبد القاهر قد ألح علي المعنى، وعلى السياق في فهمه للنظم وعلاقة هذا بإعجاز القرآن، لقلت إنه قصر عن رؤية الإعجاز في منهج القرآن المتكامل في الرؤية للحياة والوجود وموقع الإنسان العربي الجاهلي في الكون وإلحاح عبد القاهر على المعنى وعلاقة اللفظ به وعلاقتهما في كل تركيب من تراكيب فن القول بالنفس، يتضح لذلك اتضاحاً كبيراً في كتاب عبد القاهر" أسرار البلاغة"، تحقيق المستشرق هد.ريتر، إستانبول سنة ١٩٥٤م، وذلك في كلامه على اللفظ والمعنى في مطلع هذا الكتاب.

فهو يقول (صفحة ٣): " ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضلية (أي المفاضلة في الكلم)، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد... أخرجته من كمال البيان ' إلى مجال الهذيان".

ويقول (صفحة ٤): " فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجد نثرًا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدح العقل من زناد".

وهكذا نرى مدى ما وصل إليه عبد القاهر الجرجاني في فهمه، فإعجاز القرآن عن طريق نظرته للنظم في فن القول.

وهكذا أيضاً نرى المحاولات في فهم الإعجاز القرآني، وإذا كانت هذه المحاولات في تيارين رئيسيين، أحدهما يجمجم ويحوم والثاني أوضح في رسم صور من هذا الإعجاز فإنها جميعاً قد وقفت دون رسم ما جعل القرآن الكريم معجزاً في حقيقته، فهو كما أشرت قبل قليل رسالة بمنهج متكامل في رؤية الوجود والحياة، أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي صلى الله عليه وسلم بأحلى وأصفى أداء، وتحدى العرب الفصحاء البلغاء بما فاق بيانهم وأداءهم، وإن كان بيانه وأداؤه من طبيعة بيانهم وأدائهم، وفي ذلك التحدي يكمن توكيد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قبل كل شيء، أي قبل البحث في فصاحة القرآن وبلاغته من الناحية اللفظية والتعبيرية اللغوية، فرشاقة القرآن الكريم وحلاوة أدائه كانتا للدخول إلى نفس ذلك الإنسان العربي الجاهلي؛ كي يستيقظ على علاقته بالكون والوجود وعلى خالق الكون والوجود والحياة في نظام متكامل.

وأحسب أن ما تقدم من كلام على الإعجاز القرآني كاف في إعطاء القدر الذي ينبغي حول الموضوع الجليل.

ويمكن الرجوع إلى أقوال كثيرة في هذا الشأن وخاصة إلى ما جمعه جلال الدين السيوطي في كتابه" الإتقان في علوم القرآن" من أقوال كثيرة لكثيرين سبقوا وهي في الجزء الثاني من كتابه(صفحة ١١٦- ١٢٥) أي الصفحات التي عنوانها " النوع الرابع والستون".

(ناشر هذا الكتاب: المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٨هـ).